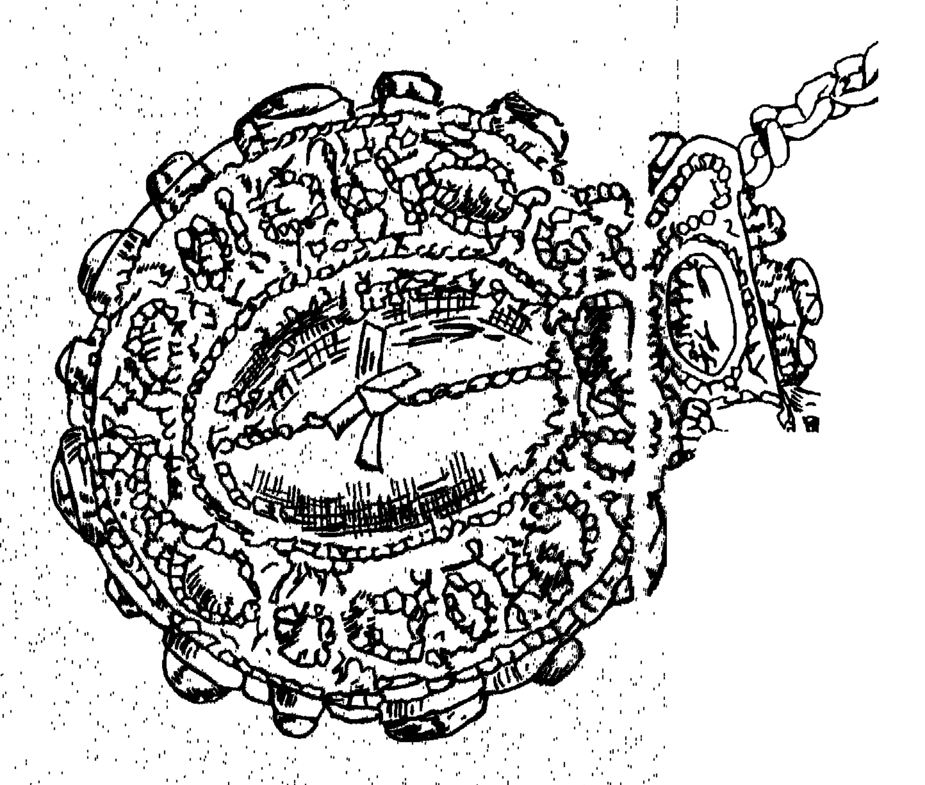
دراسات

٣

د. وسام عبد العزيز

البوسنه . الصرب . كرواتيا

قراءة فى التاريخ الباكر



دراسات عين - ٣

البوسنة - الصرب - كرواتيا
قراءة في الأصول التاريخية



دكتور وسام عبد العزيز فرج

أستاذ ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب/ جامعة المنصورة

الطبعة الأولى

١٩٩٤



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES



الناشر :

عين للدراســـات والبحوث الانســـانية والاجتـماعيـــة

ÊIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

٦ شارع يوسف فهمي ـ اسباتس ـ الهرم ـ تليفون: ٣٨٣٢٥٢٩

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

تصميم الغلاف : أيمن هلال

مقدمة

تمثل شبه جزيرة البلقان خصوصية فى تنوع التركيبة العرقية لعناصر سكانها وتباين العقائد والمذاهب الدينية لشعوبها وتعارض انتماءات وتطلعات مجتمعاتها بل وتناقض مصالح طوائف الدولة الواحدة بشكل مثير ساهم فى إثارة قضية الهوية وفى نمو الاتجاهات الانفصالية فضلاً عن تشابك وتعقد علاقات دولها بالدول المجاورة والقوى السياسية الأخرى .

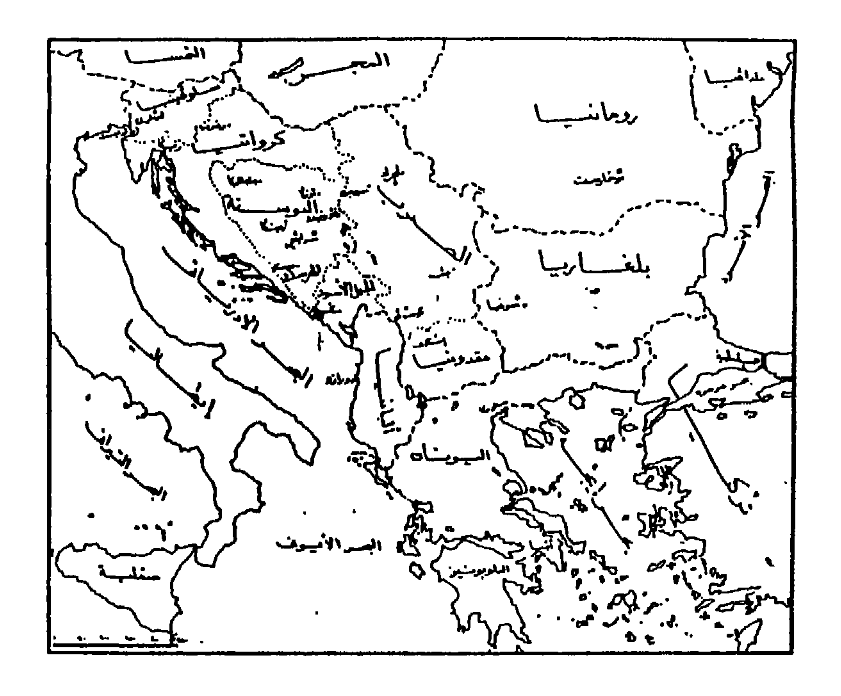
هذه الظاهرة جعلت رجال السياسة فى العصر الحديث يستخدمون مصطلح " البلقنة "للدلالة على الاتجاهات الانفصالية والتوجهات التقسيمية فى أية أزمة اقليمية يتعقد التعامل الدولى إزاءها كما تعقد دائماً بالنسبة لمشكلات البلقان .

وإذا كان رصد هذه الظاهرة البلقانية جذب انتباه الكثير من الباحثين فإن مهمة المؤرخ يجب أن تتجاوز الرصد والوصف إلى محاولة التفسير . وسنحاول فى هذه الدراسة تفسير الظاهرة البلقانية فى شمال غرب شبه الجزيرة وبالتحديد فيما كان يعرف بدولة السلاف الجنوبيين أو يوجسلافيا .

إن محاولة تفسير هذه الظاهرة تستدعى الإلمام بموقع شبه جزيرة البلقان وطبيعتها الجغرافية بصفة عامة والأقاليم الشمالية بصفة خاصة ، فالجغرافيا ، بخصائص الموقع والتضاريس والمناخ ، هى المسرح الذى حدد الموارد الاقتصادية وشكل اتجاه الأحداث وأفرز الظاهرة . كما يتطلب التفسير التعرف على العناصر العرقية للسكان وهويتهم وثقافتهم . وأخيرا

لابد من قراءة فى تاريخ المنطقة فى العصور الوسطى على أساس أن تلك العصور شهدت ظهور دول مثل بلغاريا - كرواتيا - البوسنة - الصرب وغيرها

دكتور وسام عبد العزيز فرج
الاسكندرية يناير ١٩٩٤م



شكل رقم (١) الكيانات السياسية فى شبة جزيرة البلقان

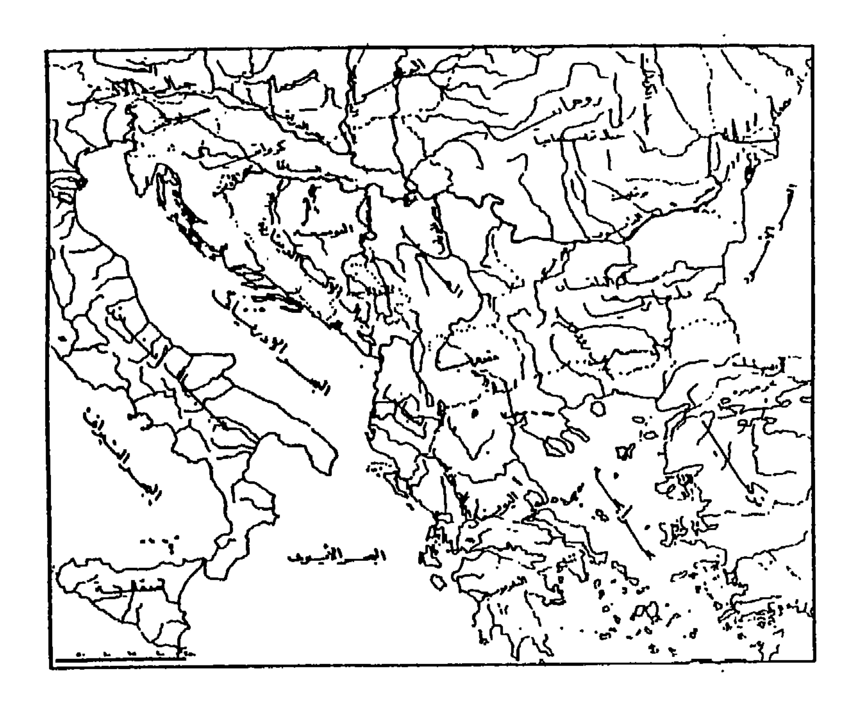
(١)

" البيئة الجغرافية "

البيئة الجغرافية

تقع شبه جزيرة البلقان فى الطرف الجنوبى الشرقى لأوربا ، ويحدها من الشمال نهر الدانوب ومن الشرق البحر الأسود والمضايق والبحر الإيجى ومن الجنوب البحر المتوسط ومن البحر الأدرياتى والبحر الأيونى وهى بهذا الموقع عند التقاء أوربا وآسيا كانت معبراً بين الشرق والغرب ومدخلاً طبيعيا للقارة الأوربية من جهة الشرق . فعبر البلقان عرفت العقائد الدينية والهرطقات والحضارة طريقها إلى وسط أوربا . وعلى أرضها تجاور المجتمع اليونانى والمجتمع الرومانى فى إطار الكيان السياسى الواحد للإمبراطورية الرومانية القديمة . وعندما انقسمت تلك الإمبراطورية فى العصر الرومانى الأخير الى قسمين شرقى وغربى كان خط التقسيم الرأسى يعبر أقاليم البلقان فى شطرها الغربى . ومنذ أواخر القرن الحادى عشر عبرت الجيوش الصليبية أقاليم البلقان فى طريقها إلى الشرق الأدنى الإسلامى بزعم تحرير الأراضى المقدسة . وهكذا فرضت طبيعة الموقع على شبه جزيرة البلقان أن تتلقى التأثيرات الحضارية من الشرق والغرب على حد سواء .

ويغلب على تضاريس البلقان المرتفعات ذات الارتفاع المتوسط (الذى لا يبلغ ٣٠٠٠ متر) التى تكون حوالى ٣/٢ من مساحته الكلية . وتعتبر المرتفعات الغربية أكثر السلاسل الجبلية طولاً إذ تمتد مسافة ١٥٠٠ كم من الشمال الغربى فى اتجاه الجنوب الشرقى وتضم سلاسل جبال الألب الدينارية Dinaric Alps التى تعبر سلوفانيا - كرواتيا - الصرب - الجبل



شكل رقم (٢) الخريطة الطبيعية لشبه جزيرة البلقان

الأسود ومقدونيا ، ثم سلسلة جبال بندوس Pindus التى تعبر ألبانيا إلى اليونان . أما النطاق الثانى من المرتفعات فهو جبال البلقان التى تقع شمال شرق شبه الجزيرة وهى امتداد لمرتفعات الكاربات Carpath عبر نهر الدانوب وتأخذ شكل القوس يمتد من الغرب الى الشرق . أما النطاق الثالث من المرتفعات فهو جبال رودوب Rhodope التى تمتد فى هيئة قوس أصغر جنوب جبال البلقان . ولقد ترتب على امتداد المرتفعات الغربية من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى وجود عدد قليل من الأنهار فى القسم الشمالى من شبه الجزيرة التى تجرى غربا لتصب فى البحر الأدرياتى ، فالأنهار فى شمال البلقان تجرى إما تجاه الشرق أو الشمال الشرقى أو تجرى مباشرة تجاه الشمال لتصب فى نهر الدانوب مثل أنهار درافا Drava – سافا Sava – البوسنة Bosna – درينا Drina – مورافا Morava – إسكور Iskur ورغم أن هذه هى القاعدة الغالبة فإن هناك عدداً قليلاً من الأنهار الصغيرة التى يجرى بعضها ليصب فى البحر الأدرياتى والبحر الأيونى . ومع أن تلك الأنهار الصغيرة تكون ودياناً منحدرة ، فإنها لا تبلغ فى الحجم أو الامتداد تلك التى تكونها الأنهار التى تصب فى نهر الدانوب(١) .

ولما كان نظام المرتفعات يحتل تلك النسبة الكبيرة من مساحة شبه جزيرة البلقان فإن السهول المرتفعة أو المنخفضة على حد السواء كانت محدودة الحجم . وربما كان السهل الوحيد الذى يمتد لمسافة كبيرة هو سهل الدانوب الذى تقطعه سلسلة جبال البلقان وتقسمه إلى قسمين الأول ويقع فى

الغرب بين مجرى نهر الدانوب ومجرى رافده الرئيسى نهر الساڤا ، أى أن القسم الأكبر منه يقع شمال دولة الصرب الحالية وشمال شرق كرواتيا . أما القسم الثانى من سهل الدانوب فيقع فى تلك المنطقة الهضبية الواقعة بين نهر الدانوب قرب مصبه فى البحر الأسود وجبال البلقان فى طرفها الغربى ، ويشتمل هذا القسم على منطقة دوبرچيا Dobrogia التى تدخل اليوم فى نطاق دولة رومانيا . وبناء على ذلك يمكن القول أن المرتفعات تسود كل أقاليم سلوڤينيا - البوسنة - الجبل الأسود ومقدونيا ، وبيما تغطى تلك المرتفعات معظم دولتى الصرب وكرواتيا باستثناء السهل الدانوبى شمال الصرب وشمال شرقى كرواتيا فضلا عن السهل الساحلى الضيق المطل على البحر الأدرياتى غرب كرواتيا .

ويتباين مناخ شبه جزيرة البلقان بشكل كبير من مناخ البحر المتوسط المعروف إلى المناخ القارى وغالبًا فى إطار مسافات غير متباعدة . وبالنسبة لشمال غرب البلقان يمكن القول بصفة عامة أن وجود المرتفات الغربية - المعروفة بسلسلة جبال الألب الدينارية وامتدادها من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى قد أدى إلى قصر مناخ البحر المتوسط على طول سواحل دولة كرواتيا أما المناخ القارى فهو الغالب على المناطق فى كرواتيا والجبل الأسود فضلاً عن أقاليم البوسنة ومقدونيا والصرب .

وفى إطار هذه الصورة للتضاريس والمناخ يمكن أن ننظر إلى أنماط الحياة النباتية وما تنتجه الأرض فى شمال غرب البلقان . بالنسبة للنطاق

الضخم من المرتفعات الممتدة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي فيمثلها قطاعات كبيرة من الغابات التى تتخللها المروج وأراضى الأعشاب الدائمة فضلا عن الأراضى الصخرية التى لا تصلح للزراعة . وتتكون أراضى الغابات من أشجار البلوط أما الأراضى الصالحة للزراعة فهى نادرة بأى مساحة جنوب نهر الساڤا . أما الأراضى الصالحة لزراعة الفواكه والعنب والزيتون فإنها تتركز بشكل كبير فى وادى الدانوب . ورغم انتشار الغابات فى معظم هذا النطاق الضخم من المرتفعات فإن نسبة كبيرة من أخشابها ذات جودة محدودة للاستغلال فى صناعة السفن على نطاق كبير . أما المراعى فإنها قابلة لاستغلال واسع كمراعى لقطعان الأغنام والماعز وحتى ذلك النشاط كان قاصراً على أشهر الصيف فقط . وعلى هذا فإن الأرض الصالحة للزراعة قليلة والأرض الزراعية الخصبة شديدة الندرة[٢] وينطبق هذا على أقاليم البوسنة والجبل الأسود ومقدونيا ومعظم أقاليم دولتى كرواتيا والصرب . وهنا يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن المنطقة الشمالية من دولة الصرب الواقعة بين نهرى الساڤا والدانوب الى الشمال من بلغراد كانت خارج حدود دولة الصرب فى العصور الوسطى ، ولم تُضَفْ اليها بشكل نهائى إلا بعد الحرب العالمية الثانية .

وجدير بالذكر أن خصائص الطبيعة الجغرافية لشمال البلقان كما قدمنا لم تختلف كثيراً فى العصور الوسطى . فالعناصر الأساسية مثل خصائص الطبوغرافيا والمناخ والعلاقة بينهما ليست عرضة للتغيرات الجوهرية فى فترة

زمنية محدودة أما الحياة النباتية واستغلال الأرض ، فمن المسلم به أنها أكثر عرضة للتغير بقدر التقدم الذى تحققه الحضارة .

(٢)

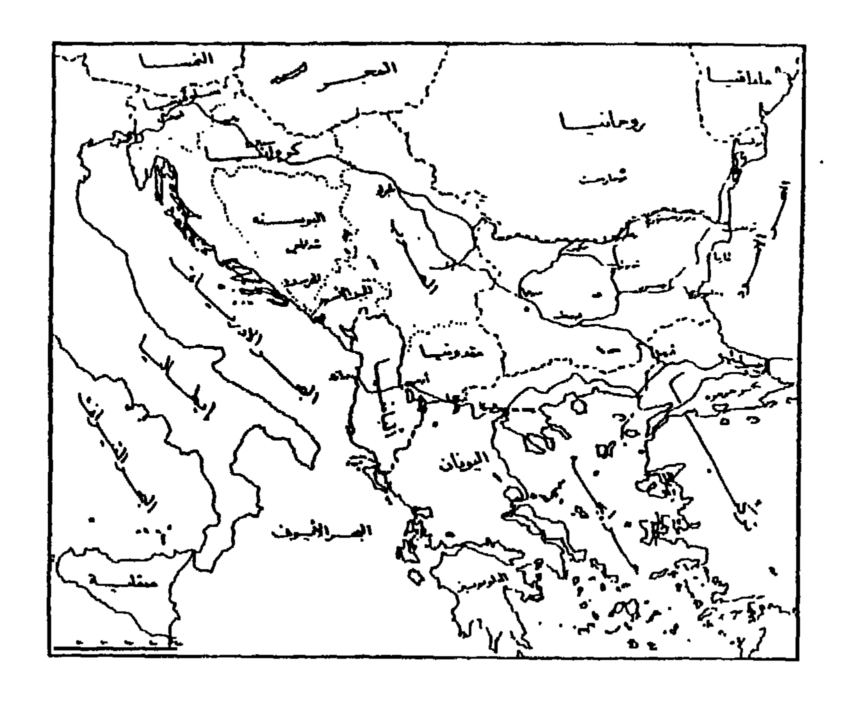
" العناصر السكانية "

العناصر السكانية

كانت العناصر العرقية الرئيسية المستقرة فى شمال البلقان فى العصر الرومانى عبارة عن عنصرين : الإليريون Illyrians فى الغرب والتراقيون Thracians فى الشرق [٣] والمعروف أن الرومان شيدوا منذ فتحهم لإقليم اليريا وساحل دالماشيا عدداً من المستعمرات الرومانية وسط تجمعات الاليريين والدالماشيين . وهكذا نمت المدن على ساحل البحر الإدرياتى أحيانًا فى مواضع مراكز اليرية قبلية أو مستعمرات يونانية مثل سالونا Salona سبالاتو Spalato وراجوسا Ragusa دبروفنيك Dubrovnik وديراخيوم Dyrrachium دورازو Durazzo كما نمت المدن أيضًا فى الداخل مع امتداد وديان الأنهار مثل سيرميوم Sirmium سنجيدونوم Singidunum بلغراد Belgrade نايسوس Naissus نيش Nisch ساردیکا Sardica صوفيا Sophia . وفى القرن الرابع الميلادى كان معظم سكان شمال غرب البلقان قد اكتسبوا عناصر الحضارة الرومانية بمعنى أن اللغة اللاتينية أصبحت لغتهم العامة ، وهكذا إذا كانت اللغة اليونانية قد استمرت فى العصر الرومانى لغة سكان جنوب البلقان ، فإن شمال البلقان والأقاليم الواقعة فى الشمال الغربى تحديداً كانت تتكلم اللاتينية ولكن اللغة الألليرية استمرت أيضًا فى بعض المناطق الجبلية من شمال البانيا Albania وإقليم كوسوفو Kosovo المتاخم (الذى يتمتع بالحكم الذاتى فيما تبقى من دول يوغسلافيا)، ويتأكد ذلك من حقيقة استمرار اللغة الألبانية الى يومنا هذا ، فاللغة الألبانية ترجع أصولها إلى اللغة الالليرية [٤] .

ومنذ العصر الرومانى الأخير كانت أقاليم شمال البلقان بصفة عامة تشهد بالفعل تنوعًا عرقيًا كبيرًا فقد وجدت جيوب عرقية من القوط Goths الباستارناى Bastarnae (وهى عناصر تتكلم الكلتية) السرامطة Sarmatians ، والسكيثيون Scythians ، والآلان Alans (وربما كانوا جميعاً من أصول إيرانية) وغيرها وسط التراقيين والالليريين (٥) . وكانت هذه الأوضاع نتيجة طبيعية لسياسة الحكومة الرومانية الخاصة بتوطين الجماعات المتبربرة المهزومة أو اللاجئة فى تلك الإقاليم فضلا عن السماح لجماعات من المحاربين والمدنيين الرومان بالاستقرار فيها . ومن الصعب أن نقرر الى أى مدى حافظت هذه الجيوب العرقية على لغاتها وعاداتها . ومع أن عدداً غير قليل من العناصر المستقرة فيها قد اندمج وذاب وسط الالليريين والتراقيين فى شمال البلقان عبر القرون ، فإن هذه الجيوب العرقية ساهمت فى تكوين الثقافة المشتركة للمنطقة ، كما كان لها أثر كبير فى إضعاف التقاليد القبلية القديمة .

وجدير بالذكر أن الرومان شيدوا عدداً من الطرق الهامة الهامة عبر أقاليم البلقان ، كانت بصفة عامة تتبع خطوط طرق قديمة . وكان أهمها ذلك الطريق الذى يبدأ من جنوب شرق مدينة أكويليا Aquileia ويمر عبر إموتا Emona(ليوبليانا Ljubljana) سيسكيا Siscia (سيزاك Sisak) سينجدونوم Singidunum (بلغراد Belgrade) ، نايسوس Naissus (نيشر Nich) رمسيانا Remesiana (بلابالانكا Bela Palanka) ، سرديك



شكل رقم (٣) الطرق الرومانية فى شمال البلقان

Serdica (صوفيا Sofia) فيليبوبولس Philippopolis (بلوفرديف Plovdiv) وهادريا نوبولس Hadrianopolis (أدرنه Adrianople) الى القسطنطينية Constantinople . وكان هذا الطريق يعرف بطريق بلغراد – القسطنطينية[٦] .

أما الطريق الثانى فهو الطريق العسكرى الذى يقطع شبه جزيرة البلقان من الغرب إلى الشرق ، وكان يعرف بطريق إجناتيا Via Egnatia وكان هذا الطريق يبدأ من ميناء ديراخيوم Dyrrachium (دروازو Durazzo) على البحر الادرياتى فى الغرب ثم يتجه شرقا عبر وسط ألبانيا Albania ويدور حول بحيرة أوخريد Ochrid من طرفها الشمالى ويمر عبر مدن ليخنس (Lychnis) (أوخريد) ، إدسا Edessa إلى سالونيكا Thessalonika ، ثم يتجه عبر الأرض المنخفضة بين الجبال والبحر يبدأ من نايسوس Naissus (نيش) ويتجه جنوبًا بحذاء وادى المورافا Morava ثم يعبر ممراً جبليا كى يصل إلى واد فاردار Vardar عند مدينة سكوبى Scupi (Skogje) ويمضى الطريق محاذيًا للنهر عبر مدينة ستوبى Stobe حتى يصل إلى سالونيكا .

وبالإضافة إلى هذين الطريقين الرئيسيين : طريق بلغراد – القسطنطينية وطريق إجناتيا ، شيد الرومان عدة طرق أخرى أقل أهمية نذكر منها طريقين : الأول ويتجه من الغرب إلى الشرق موازياً الضفة الجنوبية لنهر الدانوب ويبدأ من سينجيدونوم Singidunum (بلغراد) متجهًا إلى

ديروستوروم Durostorum ثم يمضى متجهًا إلى مدينة توميس Tomis على البحر الأسود . ولقد ربطت عدة طرق فرعية بين هذا الطريق والطريق الاستراتيجى الأول :طريق بلغراد – القسطنطينية . أما الطريق الآخر فهو طريق ساحلى على امتداد ساحل البحر الأسود . ويبدأ من مصب نهر الدانوب ثم يتجه جنوبا عبر مدن أوديسوس Odessus (ڤارنا Varna) ، مزمبريا Mesembria (نسبور Nesebur) دفلتوس Develtos (بالقرب من بورجاس Burgaz) ساليديسوس Salmydessus (كيكوى Kiyikoy) حتى يصل إلى القسطنطينية [٨] وحرص الرومان على تأمين هذه الطرق بإنشاء شبكة من التحصينات والقلاع على امتدادها خاصة عندما تعبر تلك الطرق المضايق الجبلية . هذا ، وقد اجتذبت بعض تلك القلاع جماعات من المحاربين القدماء والتجار وسرعان ما نمت وتحولت إلى مدن حقيقية . وبعد رحيل الجند الرومان من مناطق عديدة فى البلقان ، استمرت الطرق الرومانية تؤدى دورها كوسيلة وصل بين أطراف شبه الجزيرة ، وعندما تعرضت البلقان لغزوات وهجرات أقوام متباينة فى العصور الوسطى كانت تلك الطرق هى التى حددت اتجاه حركة الغزاة ومناطق استقرارهم . ويمكن القول أن الأقوام التى سيطرت على الطرق كان فى مقدورها التقدم عليها بحرية دون أن يكون لها غالبا أية سيطرة على المناطق الداخلية .

كان مجرى نهر الدانوب يمثل فى القرن الرابع الميلادى الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية . وكانت الولايات الرومانية التى تدفع الضرائب للحكومة وتخضع للقانون تقع جنوب النهر ، أما الضفة الشمالية

للنهر فكانت تطل على عالم آخر لم تتحدد له ملامح ولا هوية ، بحر متلاطم من الدويلات التابعة والقبائل المتبربرة والتجمعات السياسية المؤقتة . لقد عاشت قبائل متباينة على امتداد السهول الاسبستية الشاسعة لأوراسيا منذ الألف الثانى قبل الميلاد وحتى القرن الرابع عشر الميلادى . وإذا كان بعضها قد تطور وتحول إلى الاقتصاد الزراعى قرب الوديان النهرية فى أطراف نطاق الاستبس ، فإن أغلبها كان على بداوته فى مطلع العصور الوسطى . ولما كان الاقتصاد الرعوى لا يفى بحاجات تلك الأقوام الرعوية ، فإن تبادل المنتجات مع جيرانهم فى المجتمعات المستقرة المجاورة أصبح أمرًا لازمًا . وفى إطار هذه الأحوال العادية قامت العلاقات السلمية والصلات الحضارية بين الأقوام الرعوية شمال الدانوب والإمبراطورية الرومانية . وبسبب طبيعة الحياة الرعوية كان أى اضطراب يصيب الإيقاع التقليدى لحياة الأقوام الرعوية فى أى مكان على امتداد السهول الاستبسية ، يؤثر بالتالى على مناطق أخرى بعيدة تتجاوز النطاق الرعوى . فإذا تحركت قبيلة رعوية لأى سبب من الأسباب وتجاوزت المدار السنوى المنتظم لحركتها فإنها تشيع الاضطراب على نطاق واسع وتضغط على أقوام رعوية مجاورة وتدفعها بالتالى للضغط على جيرانها . وهكذا تضطر أقوام بعيدة عن مصدر الاضطراب الأول إلى الهجرة بحثاً عن أرض أخرى ومدار جديد أو تتطلع إلى موطن آمن وطعام وفير داخل المجتمعات الزراعية المستقرة . وهكذا تتعرض الأقوام القاطنة شمال نهر الدانوب للضغط وتضطر إلى عبور النهر بإذن الإدارة الإمبراطورية أو رغما عنها .

وإذا كانت الحكومة الرومانية قد نجحت فى بداية القرن الثانى الميلادى فى مد سيطرتها المباشرة على مناطق تقع شمال الدانوب الأوسط وأسست ولاية داشيا Dacia . فإنها اضطرت إلى إخلاء تلك الولاية الجديدة سنة ٢٧٤م فى عهد الامبراطور أورليان Aurelian بسبب الضغط المتزايد للقبائل المتبربرة شمال النهر (٩) . ويمكن القول أن النفوذ الرومانى شمال النهر كان فى أحسن الأحوال غير مباشر عن طريق الاتفاقيات والمعونات المالية والهدايا التى اعتادت الإدارة الإمبراطورية فى بعض الأحيان تقديمها لزعامات تلك القبائل . ورغم أزمة القرن الثالث فى العالم الرومانى وتداعياتها، فإن خطوط الدفاع الرومانية على امتداد الجبهة الدانوبية ظلت متماسكة بتحصيناتها الحدودية وبالفيالق الرومانية المرابطة فى ولايات البلقان وكانت قادرة على التصدى للإغارات المحدودة التى قامت بها القبائل المتبربرة عبر الدانوب حتى منتصف القرن الرابع الميلادى . ولكن ابتداء من الربع الأخير للقرن الرابع الميلادى تتغير الصورة . ويحدد انتصار القوط الغربيين على الجيش الرومانى فى معركة أدرنة ٣٧٨م وسقوط الإمبراطو فالنز Valens (٣٦٤ – ٣٧٨م) قتيلاً بداية هذا التغير ، فقد قضى القوط الغربيون على الفيالق الرومانية المرابطة فى البلقان وانهارت بالتالى خطوط الدفاع الإمبراطورية على جبهة الدانوب وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الوافدين الجدد من شمال النهر(١٠) .

ومنذ أواخر القرن الرابع الميلادى وحتى أواخر العصور الوسطى تدفقت عبر نهر الدانوب أقوام جرمانية وسلافية وتركية على اختلاف أسماء

قبائلها. جاء بعضها عابراً يبحث عن الطعام ، وجاء البعض الآخر لاجئًا يبحث عن الاستقرار. فالأقوام التى ظلت على اقتصادها الرعوى عبرت إلى البلقان بحثًا عن الطعام ومارست السلب والنهب والتدمير مثل الهون والافار والبشناق والكومان والغز ... الخ . أما تلك الأقوام التى كانت فى مرحلة التحول أو تلك التى كانت قد تحولت بالفعل الى الاقتصاد الزراعى فقد عبرت نهر الدانوب تبحث عن الأرض لإنتاج الطعام والاستقرار مثل العناصر السلافية .

والمعروف أن القبائل السلافية كانت تقطن مساحة كبيرة من السهل الأوروبى الشرقى الواقع شمال جبال الكاربات Carpath . ولقد أدى ظهور الهون فى أواخر القرن الرابع الميلادى إلى خضوع القبائل السلافية لهم ، وعندما اضمحلت دولتهم فى منتصف القرن الخامس الميلادى سعت الأقوام الجرمانية والقبائل السلافية للتخلص من سيطرة الهون بالهجرة . فبدأت هجرات على نطاق واسع للسلاف تجاه الغرب والجنوب والشرق لينتشر السلاف على مساحة كبيرة من شرق أوروبا تمتد من نهر الإلب Elbe غربيًا إلى نهر الدنيبر Dnieper شرقًا ، ومن بحر البلطيق شمالاً إلى نهر الدانوب جنوبيًا . ولم يعرف السلاف فى فترة هجرتهم هذه أى تنظيم سياسى سوى تنظيم القبيلة ، ولكن صلاحيات زعيم القبيلة كانت محددة وليست مطلقة ، كما كانت الفروق الاجتماعية بين أبناء القبيلة قليلة ، ولم يتميز السلاف فى هجرتهم بالسرعة لأنهم كانوا يتحركون على الأقدام أو يبحرون فى الأنهار

بقوارب صغيرة أجادوا صناعتها . وكان جنودهم يحملون الدروع ويتسلحون بالرماح أو الأقواس والسهام . وتجنب السلاف فى قتال الأعداء السهول المكشوفة التى تضطرهم إلى خوض معارك ميدانية ، وكانوا يفضلون القتال فى المناطق الهضبية حتى يكون فى مقدورهم إعداد الكمائن والانقضاض على العدو . وطوال مرحلة الهجرة ظلت القبائل السلافية على الوثنية (١١) .

على أية حال مع نهاية القرن الخامس الميلادى وصلت مجموعة من القبائل السلافية التى اتجهت جنوبًا إلى نهر الدانوب وانتشرت على طول الضفة الشمالية لمجرى النهر ، وبدأت المصادر البيزنطية تشير لهم باسم Sklavenoi. وكان يقصد بذلك السلاف الجنوبيين أى الذين اتجهوا جنوبًا شطر الدانوب . وجريًا على عادة تجنيد عناصر من الأقوام الأجنبية المجاورة فى الجيش الإمراطورى ، قامت الإدارة البيزنطية بتشكيل وحدات عسكرية من هذه العناصر السلافية المعاهدة فى جيوشها . وتشيرالمصادر إلى مشاركة هذه العناصر السلافية المعاهدة فى حروب الإمبراطورية جستنيان الأول (٥٢٧ – ٥٦٥ م) سواء فى إيطاليا أو على الجبهة الفارسية (١٢) .

وعن هذا الطريق بدأ اتصال السلاف الأول والمباشر بحضارة الإمبراطورية البيزنطية وبدأ تعرفهم على طوبوغرافية الأقاليم الواقعة جنوب نهر الدانوب .

(٣)

" العلاقات مع الدولة البيزنطية "

العلاقات مع الدولة البيزنطية

وتجدر الإشارة إلى أن الامبراطورية البيزنطية إذا كانت قد استطاعت فى القرن الخامس الميلادى بعد جهد كبير التخلص من مخاطر الجرمان وإعادة بناء خطوط دفاعها على جبهة الدانوب فى تراقيا والليريا ، فإن نجاحها فى هذا الاتجاه كان قصير العمر . فحروب جستنيان الأول لاسترداد الأقاليم الغربية فى القرن السادس الميلادى جعلته يهمل الجبهة الدانوبية . وكثيراً ما كان الإمبراطور يسحب جنوداً من الفرق العسكرية المرابطة هناك ليعزز وضع قواته التى تقاتل فى إيطاليا (١٣) .

ومنذ حوالى منتصف القرن السادس بدأ الاضطراب يسود الأقوام السلافية القاطنة شمال الدانوب بسبب تقدم الآفار Avars من آسيا الوسطى فى اتجاه الغرب هرباً من ضغط قبائل تركية أخرى أشد منهم قوة وأكثر منهم عدداً . والآفار شعب آسيوى رعوى ينتمى إلى جموع الترك ، تقدم بسرعة واكتسح أمامه كل الأقوام الرعوية حتى وصل إلى شمال البحر الأسود ليتقدم فى اتجاه الغرب ويسيطر على الأقاليم الواقعة شمال مجرى نهر الدانوب حتى جبال الألب بما فى ذلك إقليم بانونيا Pannonia (١٤).

بدأ السلاف فى عهد الإمبراطور جستنيان الأول يقومون بإغارات دورية عبر نهر الدانوب داخل أقاليم البلقان . ولو أن الأمر اقتصر على امكانيات السلاف فقط فربما تمكنت الإدارة الإمبراطورية من التعامل معهم ، إذ كانت غالبية العناصر السلافية تميل إلى الاستقرار وفلاحة الأرض ولم

يكن لديها مطامع سياسية محددة ، ولكن هذا لم يحدث بسبب وصول الآفار ، فقد قدم الآفار لمجموعة الأقوام السلافية ما كانت تفتقر إليه من قيادة وروح عدائية هجومية .

حاولت الإدارة البيزنطية فى عهد جستنيان احتواء خطر الآفار بمنحهم امتيازات المعاهدين حلفاء الإمبراطورية . وهكذا قام الآفار كحلفاء للإمبراطور بالتصدى للأقوام المتبربرة القاطنة شمال مجرى الدانوب سواء كانت من بقايا الجرمان أو كانت من الأقوام السلافية . بالنسبة للجماعات الجرمانية نجح الآفار فى القضاء على الجبيد Gepids وأجبروا اللومبارديين على إخلاء بانونيا Pannonia والهجرة إلى شمال إيطاليا[١٥]. كما تمكن الآفار من إخضاع مجموعة القبائل السلافية الجنوبية والغربية فضلاً عن إخضاع بعض القبائل التركية الأخرى مثل البلغار .

وعندما طالب الافار والأقوام السلافية الخاضعة لهم بحق الاستقرار فى الأقاليم البيزنطية الواقعة جنوب الدانوب مقابل الخدمات التى قدموها للإمبراطورية، فإن الإدارة الإمبراطورية فى عهد الإمبراطور جستنيان الأول تجاهلت دائمًا هذا المطلب . ولكن ابتداء من الربع الأخير من القرن السادس الميلادى بدأ الآفار والسلاف فى عبور النهر فى وقت انشغلت فيه الجيوش البيزنطية بقتال الفرس على الجبهة الشرقية. ورغم أن الآفار تولوا قيادة وتوجيه الإغارات إلى أقاليم البلقان، فإن السلاف شكلوا غالبية العناصر التى أغارت على ولايات الليريا وتراقيا وتلك التى توغلت جنوبًا إلى أقاليم اليونان[١٦].

وتبدو العلاقة بين الآفار والسلاف فى هذه المرحلة معقدة بعض الشيء فالمصادر تشير فى مواضع إلى إغارات قام بها الآفار ، كما تشير فى مواضع أخرى إلى إغارات للسلاف ، أو إغارات مشتركة للآفار والسلاف . والحقيقة أن التسلسل التاريخى لتلك الإغارات وظروف قيام المستوطنات السلافية فى البلقان لا تزال رغم كل ما كتب عن هذا الموضوع مسألة تثير الحيرة . ويرجع ذلك إلى قلة ما ورد فى المصادر التاريخية ، واضطراب عرض الأحداث وخاصة فى تواريخ القديسين (١٧) . وربما كان من الأفضل أن نتوقف قليلاً أمام الآفار والسلاف لإبراز بعض خصائصهما فى هذه المرحلة.

كان الآفار قد حققوا فى تلك المرحلة قدراً من التطور السياسى ونجحوا فى تكوين دولة لها نظم وعلى رأسها ملك يعرف بالخان ولها جيش منظم . كما استطاعوا فرض وجودهم على جيرانهم والدخول فى مفاوضات دبلوماسية وعقد معاهدات سياسية مع البيزنطيين واللومبارديين والفرنجة وغيرهم . وإذا كان الآفار قد تخلوا فى تلك المرحلة عن ممارسة الرعى بأنفسهم ، فإنهم لم يقوموا بفلاحة الأرض ولم يحرصوا على الاستقرار خارج نطاق الاستبس المألوف لهم وعاشوا على ما تنتجه الأقوام الرعوية والزراعية الخاضعة لهم . أما السلاف فكانوا عناصر غير منظمة لم تجمعها وحدة سياسية ولم تكن لها مطامع سياسية ، فكل قبيلة صغيرة كانت تعمل لحسابها وتتحرك بمفردها ، ولهذا لم نسمع عن مفاوضات دبلوماسية يجريها السلاف أو معاهدات عقدوها . وكان السلاف فى معظمهم مزارعين مجتهدين تطلعوا إلى الأرض الزراعية والقابلة للزراعة للاستقرار فيها وتعميرها وكانوا

قادرين على الجمع بين النشاط الزراعى والرعوى إذا لزم الأمر . وعلى هذا تميزت إغارات الآفار بالسلب والنهب والتدمير والعودة إلى شمال النهر ، بينما استهدفت إغارات السلاف الاستقرار فى أقاليم البلقان[١٨] .

وهكذا استقرت العناصر السلافية بأعداد ضخمة فى مناطق متعددة من شبه جزيرة البلقان وامتدت مناطق استيطانهم عبر اليونان جنوبياً إلى شبه جزيرة البلوبونيز ، لدرجة أن المراكز التى ظلت تحت الإدارة المباشرة للإمبراطورية كانت قليلة واقتصرت على تراقيا، مدينة سالونيكا ، اتيكا، شرق البلوبونيز، جزر البحر الإيجى ، وبعض المدن على ساحل البحر الادرياتى وجزر البحر الايونى [١٩] ولم تكن الإدارة البيزنطية فى مطلع القرن السابع فى موقف يسمح لها بالاهتمام بالبلقان ، وفى النصف الثانى من القرن السابع كان الوقت قد تأخر لإنقاذ شبه الجزيرة من التغلغل السلافى .

وتؤكد الشواهد أن تبدلاً جوهرياً وخطيراً قد أصاب الحياة فى شبة جزيرة البلقان نتيجة إغارات الآفار واستقرار العناصر السلافية بأعداد كبيرة فى أقاليمها . وإذا كان لزامًا علينا أن نحاول حصر تلك الشواهد فى أقاليم شمال غرب البلقان موضوع هذه الدراسة فإن هذا لا يعنى أن تلك الشواهد كانت قاصرة عليها .

أولا : قوضت غزوات الآفار واستقرار القبائل السلافية فى كل أقاليم شمال غرب البلقان توازن الحياة الاقتصادية والاجتماعية . وكانت هذه الظاهرة أكثر حدة فى المجتمعات الزراعية فى القسم الغربى

من سهل الدانوب حيث هجر كثير من صغار المزارعين مزارعهم وقراهم ، وانقطعت الطرق وانعدم الأمن .

ثانيا : على الصعيد الديموجرافى ، تغيرت الخريطة العرقية بدخول العناصر السلافية واستقرارها فى أقاليم شمال غرب البلقان . وتجدر الإشارة إلى أن بعض تلك الأقاليم كانت تعانى من نقص السكان كما كانت بعض أجزاء القسم الغربى من سهل الدانوب غير مستغله قبل وصول السلاف إليها بسبب الحروب التى شهدتها المنطقة على امتداد القرنين الرابع والخامس من الميلاد ، وعلى هذا كان استقرار العناصر السلافية فيها تعميراً لها . ولكن فى مناطق أخرى ترتب على غزو السلاف وعلى استقرارهم فيها ، نزوح جماعى لسكانها الأصليين من الالليريين والدالماشيين الناطقين باللغة اللاتينية ، إما إلى المراكز الساحلية التى ظلت فى أيدى الإدارة البيزنطية ، أو إلى جبل الإلب الدينارية المرتفعة .

ويلاحظ أن بعض هذه الجماعات من السكان الأصليين النازحين إلى الجبال قد أقامت فى قرى صغيرة فى الأودية المنحدرة خلال فصل الشتاء ، أما فى فصل الصيف فإنها كانت تصعد إلى مستويات أعلى من الجبال لممارسة رعى الأغنام والماعز . بالنسبة للسكان الأصليين من الالليريين الذين حافظوا على لغتهم الالليرية ولم يكتسبوا عناصر الحضارة الرومانية ، فقد نزحوا جنوبياً إلى الجبال المرتفعة فى شمال البانيا وإقليم كوسوفو[٢٠] .

ثالثا : تأثرت المدن فى شبه جزيرة البلقان بهذا الغزو السلافى فأصاب الدمار بعضها واضمحلت معظم المدن فى المناطق التى استقرت فيها العناصر السلافية ، إذ فقدت طابع حياة المدينة القديمة بسكانها المدنيين من التجار والحرفيين وملاك العقارات وبمؤسساتها ومنشآتها مثل مجالس المدن والأسقفيات والمسارح والمسابح العامة . لقد تعلم السلاف بمرور الوقت حصار المدن والاستيلاء عليها ، وفى البداية تجنبوا الإقامة فيها وفضلوا الاستقرار فى مستوطنات خاصة بهم خارج المدن اليونانية الرومانية القديمة . ومن المدن التى تعرضت للتدمير مدينة سالونا Salona على ساحل البر الادرياتى التى دمرها السلاف فى مطلع القرن السابع الميلادى . أما مدينة سيرميوم Sirmium على نهر الدانوب قد بدأ اضمحلالها التدريجى عقب فتح الآفار لها سنة ٥٨٢م[٢١] .

رابعا : لا شك أن اعداد العناصر السلافية التى استقرت فى أقاليم البلقان كانت كبيرة ، وكان من تداعيات هذا الحدث اختفاء العديد من الأسماء الأليرية واليونانية والرومانية للمراكز والمدن والوديان النهرية وروافدها، واتخاذ أسماء سلافية بديلة . فمثلاً سينجيدونوم Singidunum أصبحت بلغراد Belgrade ، أمونا Emona أصبحت ليوبليانا Ljubljana ، سرديكا Serdica أصبحت

صوفيا . كما أصاب التحريف بعض أسماء المدن الأخرى نايسوس Naissus أصبحت نيش ، سيسكيا Siscia أصبحت سيزاك Sisak ... الخ . وهكذا تغيرت الخريطة اللغوية لشبة الجزيرة ، ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم أصبحت اللغات السلافية هى لغات دائمة لسكان شمال البلقان أى للكيانات السياسية الواقعة شمال حدود القطاع الأوربى من تركيا الحالية ، وشمال اليونان وشرق وشمال ألبانيا [٢٢] .

على أية حال يعتبر قيام الأفار بتنظيم وتوجيه الغزو السلافى لشبه جزيرة البلقان أهم أثر خلفوه . فالدولة المترامية الأطراف التى شيدوها كانت قصيرة العمر ، وكانت القبائل الخاضعة لها تتحين الفرصة للتحرر من سلطانها . وفى عام ٦٢٦م حانت الفرصه عندما حاصر خان الأفار بالتعاون مع السلاف والفرس مدينة القسطنطينية من البر والبحر ، وانتهى الحصار بالفشل والانسحاب[٢٣] . وكانت هزيمة الأفار نقطة تحول هامة فى تاريخهم، إذ أخذ اهتمامهم بالبلقان يتضاءل بعد ذلك أمام الخطر الذى مثله تقدم الفرنجة تجاه بانونيا Pannonia فى وقت اندلعت فيه الثورات ضد سلطانهم فى الداخل .

بعد انتصار الإمبراطور هرقل على الفرس سنة ٦٢٨م، أصبح فى وسع الإمبراطورية البيزنطية توجيه اهتمامها إلى البلقان ، وتعتبر بعض الإجراءات التى اتخذها هرقل بعيدة الأثر بالنسبة لتاريخ شمال غرب البلقان . كان

هدف الامبراطور احتواء خطر الآفار ، ولهذا سعى إلى دفع حدود دولتهم بعيداً بتدبير وتمويل الثورة عند الطرفين الشرقى والغربى لدولتهم . وبدأت الإدارة البيزنطية الاتصال بكل من الكروات والصرب والبلغار وتحريضهم على التمرد على سلطان الآفار[٢٤] . والبلغار قبيلة من الترك التى استقرت فى المنطقة الواقعة بين بحر أزوف Azov ومجرى نهر الدون Don الأدنى ، أى عند الطرف الشرقى لدولة الآفار . وبالفعل ثار خان البلغار ضد سيادة الافار وبفضل الدعم البيزنطى تمكن من طرد الأفار خارج النطاق الممتد شمال البحر الأسود . وحوالى منتصف القرن السابع الميلادى تحرك البلغار غربياً بسبب ضغط الخزر Khazars حتى وصلوا إلى دلتا نهر الدانوب عند مصبه فى البحر الأسود وابتداء من سنة ٦٧٠م بدأ عبورهم النهر تدريجياً الى الاقليم الشمالى من البلقان الذى يعرف بدوبرجيا Dobrogia ، وكانت العناصر السلافية قد استقرت فيه من قبل[٢٥] .

أما قبيلتى الكروات Croats والصرب Serbs فقد خصص لهما الإمبراطور قسطنطين السابع بعض فصول مؤلفه الشهير عن الإدارة الامبراطورية[٢٦] . ويرجح المؤرخون المعنيون بالدراسات السلافية أنهما أصلاً من قبائل السرامطة Sarmatians الإيرانية الرعوية التى عبرت نطاق الاستبس الأوراسى وتقدمت غربياً حيث انقسمت كل قبيلة إلى قسمين . قسم أقام شمال جبال الكرابات . وقسم آخر واصل تقدمه غربياً حيث استقر الكروات فى جنوب شرق بوهيميا وعرفوا بالكروات البيض ، بينما استقر

الصرب جنوب سكسونيا ، وعلى هذا عندما بدأت بيزنطة اتصالاتها بتلك العناصر ، كان اتصالها فى الواقع بالكروات والصرب القاطنين السهل الأوربى الشرقى شمال جبال الكاربات وسط الأقوام السلافية التى ربما خضع بعضها لهما . ومن المحتمل أن تكون دماء العناصر الصربية والكرواتية قد امتزجت بدماء العناصر السلافية قبل هجرتهم إلى البلقان[٢٧] .

وتشير المصادر البيزنطية إلى أن الامبراطور هرقل قام بتشجيع الكروات والصرب على الثورة ضد الآفار، كما دعاهم إلى عبور الدانوب. وقامت الإدارة البيزنطية بإنزال الكروات فى الإقليم الواقع فى أقصى الشمال الغربى من شبه جزيرة البلقان بين نهر الدرافا Darava والبحر الادرياتى واستطاع الكروات طرد الآفار من بعض ولاية الليريا الغربية ومدوا سلطانهم على طوال ساحل دلماشيا ، وحلوا بذلك محل الآفار كسادة على الجماعات السلافية المستقرة هناك . وفى مقابل استقرارهم هناك اعترف زعماء الكروات بالسيادة الاسمية للإمبراطور البيزنطى ووافقوا على اعتناق المسيحية بناء على طلب الإمبراطور هرقل الذى طلب من كنيسة روما إرسال بعثات تبشيرية لنشر المسيحية بينهم . وكان هذا أمرًا طبيعيًا لأن ولاية الليريا بقسميها الغربى والشرقى كانت حتى القرن الثامن الميلادى تابعة لكنيسة روما[٢٨] .

أما الصرب فقد أنزل الإمبراطور هرقل فى البداية جزءًا منهم فى الإقليم الواقع جنوب غرب مدينة سالونيكا . ثم قام بعد ذلك بتهجيرهم مع

بقية العناصر الصربية إلى شمال غرب البلقان . فاستقر الصرب الى الشرق من عناصر الكروات جنوب مدينة سينجيدونوم (بلغراد) . واستطاع الصرب طرد الآفار من بقية أقاليم ولاية الليريا الغربية وحلوا محلهم كسادة على الجماعات السلافية المستقرة هناك . وفى مقابل استقرارهم هناك اعترف زعماء الصرب بالسيادة الاسمية للإمبراطورية البيزنطى . وقام الإمبراطور بترتيب إرسال بعثات تبشيرية لنشر المسيحية بينهم . ورغم أن المبشرين الأوائل جاءوا أيضًا من روما . فإن النشاط الحقيقى لنشر المسيحية هناك جاء من القسطنطينية فى القرن التاسع الميلادى(٢٩).

وهكذا سمحت الإدارة البيزنطية بوقوع أجزاء كبيرة من شمال غرب البلقان فى أيدى قوى حليفة لها تعترف بسيادتها الاسمية . وكانت دوافع هذا الإجراء واضحة بالنسبة للإمبراطور هرقل . ففى نظره كان الآفار وليس السلاف هم مصدر الخطر الحقيقى . ولهذا حرص الإمبراطور على تهجير عناصر يمكنه الاعتماد عليها كونت كيانات سياسية أحاطت من جهة الجنوب بإقليم بانونيا Pannonia الذى كان مركز سلطان الآفار ، بينما ترك أجزاء كبيرة من شرق البلقان واليونان فى أيدى العناصر السلافية(٣٠) .

(٤)

" الكروات والصرب والبوسنة "

الكروات والصرب والبوسنة

شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن الميلادى تطوراً خطيراً عندما انتصر الفرنجة فى عهد شارلمان على الآفار فى معركتين كانت الأولى سنة ٧٩١م ، وكانت الثانية حاسمة سنة ٧٩٦م (٣١) . إذ ترتب على نهاية دولة الآفار سنة ٨٠٥م تغير ميزان القوى فى شمال البلقان ، وبدلا من أن يعود ذلك بالفائدة على بيزنطة استفادت منه الكيانات السياسية الجديدة فى شمال البلقان . فقد فتح هذا التطور الطريق أمام توسع البلغار غرباً على طول نهر الدانوب حتى جاورت حدود بلغاريا الشمالية الغربية دولة الفرنجة . كما استفاد الكروات من ذلك ومدوا سلطانهم شمالا حيث استقرت عناصر كرواتيه تنقسم الى مجموعتين : كروات دالماشيا المستقرين جنوب نهر السافا، وكروات بانونيا Pannonia المستقرين شمال نهر السافا (٣٢) .

ولما كانت غالبية السكان فى دولتى الكروات والصرب من العناصر السلافية فإن اندماج الكروات والصرب بالعناصر السلافية المحكومة سار بخطى حثيثة . وبمرور الوقت نسى الكروات والصرب لغتهما الإيرانية الأصلية واتخذوا لهجة العناصر السلافية الخاضعة ، وأصبحت هذه اللغة تعرف باللغة الصرب - كرواتية رغم أنها واحدة من اللهجات السلافية الجنوبية (٣٣) . ولقد تكرر هذا التطور أيضاً فى شمال شرق البلقان بالنسبة للبلغار ، ففى منتصف القرن التاسع الميلادى تحقق اندماج البلغار بالسلاف ، ونسى البلغار لغتهم التركية الأصلية واتخذوا لهجة مواطنيهم السلاف الذين كانوا

يمثلون الأغلبية أيضًا وأصبحت هذه اللغة تعرف بالبلغارية [٣٤] والحقيقة أن مجموعة لغات السلاف الجنوبيين أى السلاف المستقرين فى البلقان تضم كلاً من :

١ - اللغة الصرب - كرواتية (ويتكلمها اليوم ١٩ مليون نسمه هم سكان الصرب وكرواتيا - والبوسنة - والجبل الأسود) .

٢ - اللغة السلوفينية (ويتكلمها اليوم ٢ مليون نسمة هم سكان جمهورية سلوفينيا فى شمال غرب ما كان يعرف بيوغسلافيا) .

٣ - اللغة المقدونية (ويتكلمها اليوم ٢ مليون نسمة فى جمهورية مقدونيا فى جنوب شرق ما كان يعرف بيوغسلافيا) .

٤ - البلغارية (ويتكلمها اليوم ٩ مليون نسمه هو سكان جمهورية بلغاريا) .

ورغم اندماج وانصهار كل من الصرب والكروات فى العناصر السلافية واتخاذ لغة الأغلبية السلافية الخاضعة لغة عامة للجميع ، فإن الانتماء استمر للعرق الغالب أى لعنصر الصرب أو عنصر الكروات ، كما حملت اللغة السلافية العامة السائدة اسم العرقين معًا فعرفت باللغة الصرب - كرواتية . أما العناصر السلافية الأخرى التى استقرت جنوب نهر السافا Sava بين دولتى الكروات والصرب فإنها تمركزت حول نهر البوسنة Bosna وسيطرت على المنطقة الممتدة من وادى درينا Drina شرقًا حتى وادى فرباس Vrbas غربًا. هذه العناصر السلافية لم تخضع لعرق غالب تنتمى إليه ، ولذلك انتمت لنهر

البوسنة الذى يجرى وسط مستوطناتها وعرفت بلادهم بالبوسنة Bosnia ومن المرجح أن السلاف الذين استقروا هناك منذ مطلع القرن السابع الميلادى أطلقوا على النهر اسم البوسنة Bosna بدلا من اسمه الالليرى القديم ، ثم انتسبوا إليه بعد ذلك .

وتشير المصادر إلى استقرار قبيلة سلافية تسمى الزاكلومى Zachlumi جنوب البوسنة حول نهر نرتفا Neretva فى ذلك الإقليم الذى سيعرف بالهرسك بعد ذلك(٣٥) .

ويخطىء من يعتقد أن أهل البوسنة هم البشناق Patzinaks الترك الذين هددوا الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر الميلادى . فأهل البوسنة هم السلاف الذين استقروا حول نهر البوسنة منذ مطلع القرن السابع الميلادى وشكلوا دولة حاجزة بين الكروات والصرب قبل أول ظهور للبشناق فى وثائق التاريخ بثلاثة قرون على الأقل .

على أية حال إذا كان زعماء الكروات والصرب قد وافقوا على اعتناق المسيحية فى القرن السابع الميلادى . فإن التحول الحقيقى لسكان كرواتيا ودولة الصرب بدأ فى القرن التاسع بفضل التنافس الذى ميز النشاط التبشيرى الضخم الذى قامت به كنيستا روما والقسطنطينية . وكانت كرواتيا بحكم موقعها أكثر انفتاحًا على الغرب اللاتينى وتعرضًا لتأثيره . والمعروف أن توسع دولة الفرنجة شرقًا قد أدى إلى خضوع كروات بانونيا Pannopnia للفرنجة أما كروات دالماشيا فقد أعلنوا تبعيتهم للفرنجه أيضًا

سنة ٨٠٣م . وفى النهاية تنازلت بيزنطة عن سيادتها على هذا الإقليم للفرنجة بمقتضى معاهدة أخن سنة ٨١٢م ولكنها احتفظت بسيادتها على المراكز الحصينة على ساحل دالماشيا والجزر المقابلة . ومنذ ذلك الحين أخذ سكان كرواتيايتحولون إلى المسيحية على مذهب كنيسة روما بفضل نشاط البعثات التبشيرية اللاتينية واهتمام البابوية[٣٦] .

أما بلاد الصرب فقد أدرك حاكمها فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى أن بقاء شعبه على الوثنية يعوق التقدم الحضارى لدولته ، فأرسل سفارة إلى الإمبراطور البيزنطى باسيل الأول (٨٦٧-٨٨٦م) تعلن خضوع الصرب للسيادة البيزنطية ورغبة أهلها فى اعتناق المسيحية على مذهب كنيسة القسطنطينية . وكانت الإدارة البيزنطية ترى أن اعتناق دولة الصرب للمسيحية الأرثوذكسية سيؤدى إلى توثيق تبعيتها للإمبراطورية لأن التبعية الروحية لبطريرك القسطنطينية تتضمن من حيث المبدأ التبعية السياسية للإمبراطور. وبالفعل استجابت بيزنطة لمطالب الصرب. ومن المرجح أن تحول سكان الصرب النهائى للمسيحية الأرثوذكسية قد حدث فى الفترة الممتدة من ٨٦٧م وحتى سنة ٨٧٤م [٣٧] .

أما فى البوسنة فقد أدى انتشار المستوطنات السلافية فى مجتمعات متناثرة حول وديان إقليم يتميز بالمرتفعات ذات الممرات الوعرة إلى ضعف أثر البعثات التبشيرية وجعلت العناصر السلافية المستقرة هناك تتمسك بانتمائها المستقل وهويتها الخاصه . وبانتشار الكاثوليكية فى دولة الكروات

والأرثوذكسية فى بلاد الصرب ازداد تبلور دور الدولة الحاجزة للبوسنة ، والتى ظل سكانها على وثنيتهم فترة أطول وعندما فتحوا أبوابهم فى النهاية لتيار المسيحية الوافد من أقاليم الصرب كانت استجابتهم أكبر للدعاة المبشرين بالفكر الدينى المعارض فاعتنقوا الهرطقة البوجوميلية وتمسكوا بها، ووجدوا فيها هوية لهم منذ القرن الثانى عشر وحتى القرن الخامس عشر الميلادى(٣٨) .

وإذا كنا قد أشرنا إلى قيام كيانات سياسية صغيرة باسم كرواتيا وصربيا والبوسنة فى الجزء الشمالى الغربى من شبه جزيرة البلقان فيجب ألا ننسى أن طبيعة التضاريس الجبلية الغالبة على تلك الأقاليم والغابات التى تغطى مساحات كبيرة منها جعل المسالك والطرق وعرة وقليلة بين المستوطنات السلافية المتناثرة فيها . وحتى القرن الثانى عشر الميلادى كانت أقاليم الصرب والبوسنة تعانى من التخلف ولم يكتمل التحول فيها إلى الاقتصاد الزراعى رغم وجود أراضى صالحة للزراعة حول وديان الأنهار التى تجرى فيها . وتتأكد هذه الصورة إذا طالعنا كتابات المؤرخين الذين صاحبوا الحملات الصليبية الأولى والثانية والثالثة وما سجلوه من وصف للأقاليم التى عبروها فى البلقان . فالمؤرخ ريموندداجيل يصف عبور جيش ريموند الرابع كونت تولوز أقاليم سلافية تدخل فى نطاق كرواتيا والبوسنة والجبل الأسود فى طريقه إلى البانيا ، ويشير إلى مصاعب الرحلة التى استغرقت أربعين يومًا عبر الجبال الوعرة والغابات الكثيفة والفرسان

يتحسسون الطريق وسط سحب الضباب . كما يصف تخلف السكان السلاف الذين هربوا من قراهم وتحصيناتهم ورفضوا الاتجار مع الفرنجة أو إمدادهم بالمؤن والأدلاء مفضلين قطع الطرق عليهم واستنزافهم [٣٩] . أما المؤرخ أودو من دويل Odo of Deuil الذى وصف رحلة الملك الفرنسى لويس السابع إلى الشرق فى الحملة الصليبية الثانية ، فيصف الطريق الذى عبره الملك الفرنسى سنة ١١٤٧م من بلغراد إلى نيش فى خمسة أيام وكيف كانت تغطية الغابات الكثيفة والمروج . ويؤكد المؤرخ المجهول (الذى يعرف باسم Ansbert) ، الذى سجل أحداث حملة الإمبراطور فردريك بارباروسا سنة ١١٨٩م ، بشكل عام الوصف الذى سجله اودو الفرنسى للمنطقه الواقعة جنوب بلغراد فى بلاد الصرب [٤١] ويبدو أن القسم الغربى من سهل الدانوب الذى يقع شمال صربيا وشرق كرواتيا كان أيضاً غير مستغل زراعياً ويتميز بنقص الكثافة السكانية وتنتشر فيه الأحراش المناسبة للصيد على حد قول المؤرخ البيزنطى يوحنا كناموس Ioannes Cinnamus فى القرن الثانى عشر الميلادى [٤٢] .

هذا ، وقد أكد وليم الصورى الصورة التى رسمها مؤرخو الحملات الصليبية لإقليم شمال غرب البلقان . والمعروف أن وليم الصورى ، الذى يعتبر واحداً من أبرز مؤرخى العصور الوسطى ، قام بزيارة لمناطق الحدود الصربية سنة ١١٦٨م، وعقب إشارته لتضاريس بلاد الصرب ، وصف وليم الصورى السكان هناك بالتخلف والغلظه والجهل بالزراعة ، وأكد أن بلادهم تمتلىء بقطعان الماشية والأغنام والماعز وتتميز بإنتاج الحليب والجبن والزبد

واللحوم والعسل والشمع . ولا شك أن هذا الوصف ينطبق على أقاليم لا يزال اقتصادها رعوياً . وأضاف نفس المؤرخ خبراً مثيراً حين ذكر أن بيزنطة حرصت على بقاء أقاليم شمال غرب البلقان منعزلة مهجورة ، وأن الإدارة الإمبراطورية كانت لا تسمح لأحد من رعاياها بدخول تلك الأقاليم للاستقرار فيها كما لم تشجع السكان هناك على ممارسة الزراعة ، ويعلق وليم الصورى بأن إبيروس Epirus التى تقع على مسيرة أربعة أيام من ديراخيوم تلقت نفس المعاملة ، وأن البيزنطيين طبقوا هذه السياسة على أقاليم الأطراف وخاصة تلك الملاصقة لممالك أجنبية [٤٣] .

ولا شك أن الطبيعة الجغرافية لأقاليم شمال غرب البلقان قد أسهمت فى صياغة علاقات كل من كرواتيا وبلاد الصرب والبوسنة مع القوى المجاورة لها وخاصة الإمبراطورية البيزنطية - بلغاريا - دولة المجر . فمنذ دعوة الكروات والصرب فى القرن السابع الميلادى للاستقرار هناك ، اكتفت بيزنطة بالسيادة الاسمية على تلك الأقاليم . وفى عهد الإمبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠-٨٢٩م) سمحت الإدارة البيزنطية بالاستقلال الذاتى للكروات والصرب والعناصر السلافية المستقرة فى البوسنة فضلا عن مدن ساحل دالماشيا والجزر المقابلة لها [٤٤] .

وعندما تكررت إغارات المسلمين البحرية فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى على مدن الساحل الشرقى للبحر الادرياتى . تعاونت بيزنطة مع مدن ساحل دالماشيا وأمراء كرواتيا وجنوب البوسنة فى القيام بهجوم

بحرى مضاد انطلق من مدينة راجوسا Ragusa (دبروفنيك) ضد قاعدة المسلمين فى أبوليا Apulia بجنوب إيطاليا [٤٥] .

ورغم أن الإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور باسيل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥م) نجحت بعد حرب طويلة فى القضاء على الدولة البلغارية الأولى وضمت أقاليمها إلى الكيان الإمبراطورى واستردت سيادتها على شبه جزيرة البلقان سنة ١٠١٨م ، فإنها أبقت أقاليم الكروات والصرب والبوسنيين فى ظل حكم أمرائها المحليين الذين اعترفوا بسيادة الإمبراطور [٤٦] . وظلت تلك السيادة إسمية فى حالة الكروات الذين لم يهتموا بالمصالح السياسية البيزنطة فى البحر الادرياتى . وعندما أصبح على الدولة البيزنطية مواجهة قوة البندقية المتنامية فى البحر الادرياتى ، اضطرت الإدارة الإمبراطورية الى التخلى عن سلطانها الفعلى على ممتلكاتها فى المراكز الحصينة على ساحل دالماشيا لصالح كرواتيا سنة ١٠٦٩م[٤٧] ، وهكذا كانت كل العوامل مواتية لاستقلال كرواتيا الكامل وخروجها من دائرة النفوذ البيزنطى . وفى سنة ١٠٧٥م تم تتويج ديمترى زفونيمير Demetrius Zvonimir ملكًا على كرواتيا على يد مندوب البابا جريجورى السابع . ولكن إذا كانت كرواتيا قد استطاعت التخلص من نفوذ القسطنطينية البعيدة ، فإنها سرعان ما سقطت فى نفوذ دولة المجر المجاورة التى دخلت منذ القرن الثانى عشر فى صراع عنيف مع بيزنطة من أجل السيادة على شمال البلقان . والحقيقة أن كرواتيا أصبحت منذ سنة ١١٠٢م جزءًا تابعًا لدولة المجر باستثناء فترة قصيرة عادت فيها لدائرة النفوذ البيزنطى بين عامى ١١٦٧-١١٨١م . ومنذ ذلك الحين تعلق

مستقبل كرواتيا بوسط أوروبا وارتبطت مصالحها بالغرب اللاتينى الكاثوليكى(٤٨) .

إذا انتقلنا الى البوسنة سنجد أن زعماء العناصر السلافية المستقرة فيها وزعماء قبيلة الزاكلومى Zachlumi المستقرة فى جنوبها ، كانوا أكثر التزاماً بالسيادة الاسمية للدولة البيزنطية من جيرانهم الكروات والصرب . ورغم أن البوسنيين كانوا معزولين فى جبالهم ووديانهم المنحدرة وعلاقاتهم التجارية والسياسية بجيرانهم محدودة ، فإن تاريخ البوسنة من القرن العاشر وحتى القرن الرابع عشر الميلادى ارتبط دائماً بصراع القوى السياسية المجاورة وتوسعها الإقليمى . فمنذ نهاية القرن التاسع استولى الكروات على أجزاء كبيرة من شمال البوسنة(٤٩) .

وفى القرن العاشر عندما توسع البلغار تجاه الغرب فى عهد القيصر سيميون مدوا سلطانهم حتى جنوب البوسنة كما أخضعوا الإمارات الصربية المجاورة . وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تورطت البوسنة فى ثورات أمراء الصرب من أجل الاستقلال الكامل عن الدولة البيزنطية ، وخضعت أجزاء منها لحكم دولة الصرب(٥٠) .

وفى القرن الثانى عشر الميلادى عندما مدت المجر سيادتها على كرواتيا استولت أيضاً على أجزاء من شمال البوسنة . وظلت البوسنة تدور فى فلك دولة المجر طوال القرن الثالث عشر وحتى العقد السابع من القرن الرابع عشر الميلادى(٥١) .

وخلال هذه الفترة تطورت البوسنة وعرفت الاقتصاد الزراعى إلى جانب الاقتصاد الرعوى وترتب على ذلك تبلور شكل من أشكال النظام الإقطاعى وظهور طبقة من كبار ملاك الأرض . هذا ، ونمت مملكة البوسنة بسرعة فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر واستفادت من تغير ميزان القوى فى البلقان عقب ظهور الأتراك العثمانيين وانتصاراتهم على كل من البيزنطيين والبلغار والصرب . وعقب اعتلاء تفرتكو الأول Tvrtko 1 عرش البوسنة سنة ١٣٧٧م ، بدأ توسعاً سريعاً وقوياً داخل أراضى كرواتيا وساحل دالماشيا وصربيا وترتب على ذلك قيام مملكة البوسنة الكبرى وأصبح ملك البوسنة أقوى ملك مسيحى فى البلقان . ولكن هذه الصحوة البوسنية كانت قصيرة العمر إذ سرعان ما قضى عليها الأتراك العثمانيون أيضاً(٥٢).

أما اسم الهرسك Herzegovina فقد أطلق على الجزء الجنوبى من مملكة البوسنة فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى قبل استيلاء العثمانيين على المملكة . أما سبب التسمية فيرجع إلى قيام أحد كبار ملاك الأرض ويدعى شتيان فوكشيس كوساشا Stjepan Vukcic Kosaca (١٤٠٥-١٤٦٦م) بالثورة على ملك البوسنة آنذاك وأعلن نفسه هرتزج Herzeg أى دوقاً على إقليم القديس سافا St. Sava واستقل بحكمه . ومنذ ذلك الوقت عرف الإقليم باسم Herzegovina أى أرض الدوق . وبعد الفتح العثمانى أصبح يعرف بسنجق الهرسك أى إقليم الدوق (٥٣) .

أما بلاد الصرب فكانت أكثر أقاليم شمال غرب البلقان تطلعًا إلى الاستقلال عن الإمبراطورية البيزنطية ، والحقيقة أن تضاريس بلاد الصرب ساهمت فى نمو الاتجاه المحلى الانفصالى فقامت عدة إمارات صربية اقتسمت النفوذ فيما بينها ، وكان أهمها إمارتى ديوكليا Dioclea فى الغرب وراسكيا Rascia فى الشرق . وفى العقد الرابع من القرن الحادى عشر الميلادى نمت إمارة ديوكليا الصربية حول بحيرة سكوتارى Scutari وخليج كوتور Kotor أول إمارة صربية تنجح فى الاستقلال، كما توسعت وضمت إمارات صربية أخرى وأجزاء كبيرة من جنوب البوسنة. ولكن بيزنطة استطاعت سنة ١٠٩٠م هزيمة أميرها وقضت على استقلالها واستردت نفوذها من جديد على بلاد الصرب. وفى القرن الثانى عشر فقدت إمارة زتا Zeta دورها السياسى وانتقلت قيادة الصرب إلى أمراء راسكيا Rascia (٥٤) .

ورغم خضوع بلاد الصرب للإمبراطور البيزنطى ، الذى تدخل فى تعيين وعزل أمراء راسكيا ، فإن روح الثورة ظلت كامنة ، ولقد استغل أمراء الصرب انشغال بيزنطة بحروبها ضد المجر فى القرن الثانى عشر وتوسعوا شرقًا نحو نيش Nisch وجنوبًا نحو مقدونيا . وبعد وفاة الإمبراطور مانويل كومنين سنة ١١٨٠م بدأ تمرد أمراء الصرب ضد النفوذ البيزنطى ونجحوا فى ضم جزء من ساحل دلماشيا وأجزاء أخرى من البوسنة . وفى سنة ١١٩٠م وبعد حرب قصيرة وقعت الدولة البيزنطية فى عهد الإمبراطور إسحاق أنجلوس Isaac Angelus معاهدة مع الصرب تضمنت اعترافًا بيزنطيًا باستقلال دولة الصرب التى نجحت فى الاحتفاظ بمعظم الأقاليم التى

استولت عليها . وأعقب تلك المعاهدة انعقاد أول زواج سياسى بين أسرة أنجلوس الحاكمة فى بيزنطة وأسرة نمانجا Nemanja الحاكمة فى دولة الصرب(٥٥).

لا شك أن اضمحلال سلطان الدولة البيزنطية فى البلقان عقب سقوط القسطنطينية الأول فى يد الصليبيين سنة ١٢٠٤م قد انعكس على دولة الصرب. ففى القرن الثالث عشر الميلادى تأرجحت سياسة دولة الصرب الخارجية بين المصالح المتنافسة لجيرانها الأقوياء ، فأحيانًا تحالف حكام الصرب مع أمراء ابيروس أو مع حكام بيزنطة فى المنفى المستقرين فى نيقية، وفى أحيان أخرى تحالفوا مع دولة المجر وحكام صقلية الذين ازداد نفوذهم وتعلقت مصالحهم بالبلقان ، أما من الناحية الحضارية ، فقد استمر احتفاظ دولة الصرب حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى بموقف وسط بين العالم الغربى اللاتينى الكاثوليكى والعالم البيزنطى اليونانى الأرثوذكسى. وقد ظهر ذلك جليًا فى التعميد المزدوج لأميرها نمانجا Nemanja فى البداية على يد قسٍ لاتينى فى إمارة زتا Zeta ، ومرة ثانية على يد أسقف أرثوذكسى فى راسكيا Rascia ، كما تتمثل هذه الازدواجية فى قبول ابنه شتفان Stephen تاجًا ملكيًا من روما سنة ١٢١٧م ، ثم نجاحه بعد ذلك بعامين فى الحصول على استقلال الكنيسة الصربية الأرثوذكسية الذاتى من نيقية مقر الحكومة البيزنطية فى المنفى (٥٦) .

على أية حال ، بدأ هذا التوجه المزدوج نحو الشرق والغرب يتغير فى منتصف القرن الثالث عشر عندما نمت دولة الصرب بعد اكتمال تحولها إلى الاقتصاد الزراعى واكتمال نضج النظام الإقطاعى الذى عرفته منذ أواخر القرن الثانى عشر . ففى تلك الفترة بدأ توسع دولة الصرب فى اتجاه الجنوب الشرقى وضمت أقاليم مقدونيا وشمال اليونان وأصبحت بذلك تجاور المدن البيزنطية على ساحل البحر الايجى .

ولقد بلغ هذا التوسع ذروته بفتوحات شتفان دوشان Stephen Dusan (١٣٣١-١٣٥٥م) ، الذى حمل لقب قيصر منذ سنة ١٣٤٥م . وبهذا الفتح أصبحت دولة الصرب الكبرى أكثر توجهًا نحو الشرق . ومنذ ذلك الوقت وحتى هزيمتها ثم سقوطها فى أيدى الأتراك العثمانيين أصبحت دولة الصرب بكنيستها الأرثوذكسية المستقلة ذاتيًا أشد ارتباطًا بالحضارة البيزنطية(٥٧).

وجدير بالذكر أن نمو النظام الإقطاعى فى دولة الصرب والدور القوى الذى أخذت تلعبه الكنيسه فى إطاره وما صاحب ذلك من تمايز طبقى قد ساعد على انتشار الهرطقة البوجوميلية بين الفئات المعدمة فى المجتمع الصربى .

وتشير المصادر الصربية إلى البعد الاجتماعى لتلك الحركة ، وتذكر أن هجوم الهراطقة كان موجهًا فى القرن الثالث عشر ضد القيصر والنبلاء من السادة الاقطاعيين وكبار رجال الكنيسة الصربية وأن الهراطقة تعرضوا للاضطهاد(٥٨).

أما فى البوسنة المجاورة فقد انتشرت نفس الهرطقة فى إطار أبعاد أخرى طوال ثلاثة قرون من القرن الثانى عشر وحتى سقوطها فى يد الأتراك العثمانيين فى القرن الخامس عشر . لقد وجدت البوسنة فى تلك الهرطقة هوية دينية لها بين أرثوذكسية الشرق وكاثوليكية الغرب فتمسكت بها حتى أصبحت عقيدتها العامة السائدة التى آمن بها العامة والنبلاء . كما وجدت فيها تعبيراً عن هويتها السياسية المستقلة فى مواجهة جيرانها الطامعين فيها (٥٩) .

على أية حال ، بدأ الأتراك العثمانيون منذ منتصف القرن الرابع عشر فى التوسع داخل شبه جزيرة البلقان . هذا ، وقد حسمت معركتى ماريتزا Maritsa فى ٢٦ من سبتمبر ١٣٧١م ، وكوسوفو Kosovo فى ١٥ من يونيو سنة ١٣٨٩م مستقبل البلقان لصالح الأتراك العثمانيين . ففى المعركة الأولى حقق السلطان مراد الأول (١٣٦٢-١٣٨٩م) انتصاراً كبيراً على جيش ملك الصرب الذى سقط فى المعركة قتيلاً . وفى المعركة الثانية حقق بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م) ، نصراً حاسما على جيش مملكة البوسنة المتحالف مع أمراء الصرب . وتوالى بعد ذلك سقوط الكيانات السياسية فى البلقان : ففى سنة ١٣٩٦م سقطت بلغاريا وبعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م . سقطت مملكة الصرب سنة ١٤٥٩م، كما سقطت مملكة البوسنة سنة ١٤٦٣م، والهرسك بعد ذلك بعامين . وفى سنة ١٤٦٨م سقطت ألبانيا ، وأخيراً سقطت كرواتيا سنة ١٥٢٦م ، وبدأت شبه جزيرة البلقان صفحة جديدة فى تاريخها أطلت فيها على العصر الحديث


الخاتمة

الخاتمة

وأخيراً ، ما الذى يمكن أن نخرج به من هذه القراءة فى تاريخ شمال غرب البلقان فى العصور الوسطى ؟ ربما يمكن استخلاص الملاحظة التالية:

عاشت كرواتيا والبوسنة وبلاد الصرب فى العصر الوسيط فى منطقة التقاء عالمين متنافسين وثقافتين متباينتين وتنوع عرقى قديم . ورغم أن الدماء السلافية تجرى فى عروق الكروات والبوسنيين والصرب فإنها لم تكف لصنع هوية مشتركة فى أقاليم تشجع طبيعتها الجغرافية على نمو الاتجاهات الانفصالية والتوجهات التقسيمية التى احتضنت بالتالى ميراثًا تاريخيًا وعقيديًا متباينًا . وإذا كانت كرواتيا قد وجدت هويتها فى عالم الغرب الأوربى اللاتينى فقد ترك ذلك بصماته فى اعتناقها للكاثوليكية وفى كتابتها اللغة الصرب – كرواتية بحروف لاتينية ، بيما وجدت بلاد الصرب هويتها منذ القرن الثالث عشر فى عالم الشرق الأوروبى فاتخذت رموزه باعتناقها للأرثوذكسية وكتابتها اللغة الصرب – كرواتية بحروف سلافية مثل اللغتين البلغارية والروسية . أما البوسنة فقد عاشت تبحث عن هوية فى عصر كانت الهوية فيه دينية قبل تبلور فكرة القومية فى العصر الحديث . وفى البداية وأمام تيار المسيحية الزاحف اختارت جانب البوجوميلية التى كانت تمثل فكراً دينياً مناوئًا للكنيستين الشرقية والغربية على حد سواء . وتعرضت البوجوميلية للاضطهاد ، واعتبر البوسنيون ذلك محاولة لقتل هويتهم من جانب جيرانهم . وعندما فتح العثمانيون البلقان وجد شعب البوسنة فى الإسلام الهوية المناسبة للعصر الجديد ولكن ها هم يتعرضون من جديد لقتل الهوية ....!

الحواش والمصادر والمراجع

الحواشى

١ – للمزيد عن تضاريس شبه جزيرة البلقان ، انظر :

Péchoux and Sivignon. **Les Balkans,** 11-24; **Obolensky** Commonwealth. 19-29.

٢ – للمزيد عن المناخ والحياة النباتية فى أقاليم شمال غرب البلقان، انظر :

Milivoievic and Roglic, **Yugoslavia,** 512-27.

٣ –عن العناصر العرقية فى شمال البلقان منذ العصر القديم ، انظر :

Georgiev, **Balkan Peoples,** 285-97.

٤ – Browning, **Byzantium and Bulgaria,** 23

٥ – Browning, **Byzantium and Bulgaria,** 23-24; Georgev, **Balkan peoples,** 285-97.

٦ – للمزيد عن طريق بلغراد–القسطنطينية وأهميته فى العصور الوسطى، انظر :

Obolensky, **Commonwealth,** 35-38.

٧ – Obolensky. **Commonwelath.** 40.

٨ – Browning, **Byzantium and Bulgaria,** 24.

٩ – Jones, **LRE,** 1.35.

١٠ – عن معركة أدرنة التى وقعت يوم ٩ أغسطس سنة ٣٧٨م ، انظر :

Jones, LRE. l, 153-54; Ostrogorsky, State, 52.

١١- Browning, **Byzantium and Bulgaria**, 31-32;

Obolensky, **Commonwealth**, 64-66, 82.

١٢- Browning, **Byzantium and Bulgaria**, 32.

١٣- Jnes **LRE**, 1 299.

١٤ – للمزيد عن الآفار وتقدمهم من آسيا الوسطى تجاه الغرب وقيامهم بتهديد جبهة الدانوب ، انظر :

Bury, **Roman Empire**, ll, 314-16; Ostrogorsky, **State**, 81; Howorth, **The Avaras**, 721-810.

١٥ – يلاحظ أن الآفار تحالفوا فى البادية مع اللومبارديين ونجحوا معًا فى القضاء على الجبيد ، وعندما ازداد خطر الآفار ، فضل اللومبارديون الهجرة الى شمال ايطاليا وتركوا الساحة للآفار ، أنظر :

Jones, **LRE**, l, 305; Obolensky, **Commonwealth**, 73.

١٦ – وصف المؤرخ السريانى المعاصر يوحنا الافسوسى عبور السلاف نهر الدانوب واجتياحهم أقاليم البلقان ابتداء من سنة ٥٨١م ، انظر :

John of Ephesus, 432-23; Obolensky, **Commonwealth**, 75-77; Lemerle, **Invasions**, 281-95; Dvornik, **Les Slaves**, 4-10.

وانظر أيضا : وسام عبد العزيز فرج : " السلاف فى شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها (٥٩١-١٠١٨م)" ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلدان ٣٠/٣١ (١٩٨٣-١٩٨٤م) ، ١٤١ - ٢٠٢ .

١٧ يظهر اضطراب التسلسل التاريخى للأحداث بوضوح فى المصدر المعروف بمعجزات القديس ديمترى Miracula Sancti Demetri ، الذى يعد أهم مصدر لدينا عن استقرار السلاف فى أقاليم البلقان ، انظر:

Miracula Saneri Demetri, AASS, 104-97.

وانظر أيضاً : الطبعة الحديثة لهذا المصدر والدراسة التى قدمها الأستاذ لامرل :

Lemerle, Anciens Recueils, 2 vols.

١٨- Browning, Byzantium and Bulgaria, 36-37.

١٩- Charanis, Demography, 455; Charanis, Observations, 15-16.

٢٠- Browning, Byzantium and Bulgaria, 42-43.

وقارن أيضاً :

Charanis, Ethnic Changes, 23-44; Obolensky, Commonwealth 90-81; Georgiev, Balkan Peoples, 285-97; Angelov, Entstehung, 69.

٢١ - Obolensky, **Commonweath,** 74,77; Browning, **Byzantium and Bulgaria,** 36, 43-44

وانظر أيضًا :

DAI, 1.30, 140-142; 11,113-114.

٢٢- Angelov, **Entstehung,** 68-71' Toynbee, **Constantine** 619-20; Vasmer, **Die Slaven,** 150-59, 324; Lemerle, **Invasions** 287-304.

٢٣ - عن حصار الآفار والسلاف والفرس لمدينة القسطنطينية سنة ٦٢٦م ، انظر :

Barisic, Siége de Constantinople, 371-95; Obolensky, Commonwealth, 77-78.

٢٤ - Toynbee, **Constantine,** 621; Browning, **Bizantium and Bulgaria,** 44-45.

٢٥ - **Nicephorus,** 24; **Theophanes** 1, 357; Obolensky, **Commonwealth,** 89-91; Browning, **Byzantium and Bulgaria,** 45-47; Angelov, **Entstehung,** 77-82.

٢٦ - تناول الإمبراطور قسطنطين السابع فى بعض فصول (٢٩-٣٦) مؤلفه عن الإدارة الإمبراطورية ، الصرب والكروات والقبائل السلافية المستقرة فى شمال غرب البلقان، وتعد المعلومات التى أوردها على جانب كبير من الأهمية ، أنظر :

DAI, 1.29-36, 122-164.

وانظر أيضًا الترجمة العربية لها فى :

إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة الدكتور محمود سعيد عمران ، دار النهضة العربية (بيروت ، ١٩٨٠) ، ١٠٥ – ١٣٦ .

وانظر أيضًا تعليق المؤرخين الحديثين على تلك المعلومات فى :

DAI, ll. 93-142.

٢٧ – انظر مختلف آراء المؤرخين الحديثين حول أصل الصرب والكروات فى:

DAI, ll. 115, 116-17, 119-32.

وانظر أيضًا :

Grégoire, **Origine**, 88-118; Dvornik, **Eastern Europe**, 270-71.

٢٨ – DAI, 1.31, 1,48-49; Tonybee, **Constantine**, 624; Obolensky **Commonwealth**, 85-86; Brozning, **Byzantium and Bulgaria** 44.

٢٩ – DAI, 1.32, 152-53, 160; Toynbee, **Constantine**, 624-25; obolensky, **Commonwealth**, 86; Browning, **Byzantium and Bulgaria**, 44.

٣٠– Browning, **Byzantium and Bulgaria**, 45.

٣١- Halphen, **Charlemagne**, 81-87

٣٢- Obolensky, **Commonwealth**, 136

٣٣- Dvornik, **Eastern Europe**, 268-305; Grégoire, **Origine**, 88-118; Hauptmann, **Rapports**, 166, n.2.

٣٤- Btowning, **Byzantium and Bulgaria**, 53; Angelov, **Formation**, 54,55,58; Angelov, **Entstehung**, 77-88.

٣٥ - يذكر الأستاذ أبلنسكى أن العناصر السلافية استقرت فى مستوطنات متفرقة حول وديان الأنهار ثم انتسبت الى تلك الأنهار . وعلى هذا فإن التيموخيين Timochane هم السلاف المستقرين حول نهر تيموك Timok ، والمورافيين Moravane هم العناصر السلافية التى استقرت حول نهر مورافا Morava (فى بلاد الصرب) ، انظر :

Obolensky, **Commonwealth**, 83

ويذكر الإمبراطور قسطنطين السابع أن كلمة الزاكلومى Zachlumi تعنى فى اللغة السلافية ما وراء الجبل ، أى أن هذه القبيلة السلافية استقرت خلف جبل فى جنوب البوسنة ، ولكن العناصر التى استقرت حول نهر نرتفا Neretva انتسبت إليه ، وعرفت أيضاً باسم النارنتانى Narentani على حد قول الأستاذ/ أبلنسكى ، أنظر:

DAI, I.33, 161- 62; II,137,

٣٦ – للمزيد عن معاهدة آخن سنة ٨١٢م ، ونشاط البعثات التبشيرية اللاتينية فى كرواتيا، أنظر :

Vlasto, **Christendom.** 189-94.

٣٧ – **Theoph.** Cont. 291-92; Obolensky **Commonwealth,** 134-36; Dujcev, **Serbes,** 53-60.

٣٨ – تعد الهرطقة البوجوميلية من أقوى الحركات الدينية المعارضة للكنيسة فى البلقان . ظهرت هذه الهرطقه فى بلغاريا فى الربع الثانى من القرن العاشر فى عهد القيصر بطرس (٩٢٧–٩٦٩م) ، ثم انتشرت بعد ذلك فى بعض أقاليم الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر الميلادى . كما امتدت الحركة بعد ذلك إلى بلاد الصرب والبوسنة ابتداءً من القرن الثانى عشر . وتتميز الحركة البوجوميلية ببعدها الاجتماعى إذ انتشرت بين طبقات المعدمين من الفلاحين الذين أرهقتهم حروب سيميون البلغارى (٤٩٣–٩٢٧م) والضرائب الباهظة التى فرضها عليهم كبار ملاك الأرض وكبار رجال الكنيسة . فأخذت الحركة شكل الرفض للنظام القائم بمؤسساته الدينية والدنيوية . ويؤمن البوجوميل بالثنائية ، أو بوجود عنصرين : عنصر الخير وعنصر الشر . فعالم السماء والروح من خلق عنصر الخير ، أما عالم الدنيا والجسد فمن خلق الشر (الشيطان) . للمزيد عن البوجوميلية فى شبه جزيرة البلقان ، انظر :

Angelov, **Bogomil Movement,** 39-55;

Obolensky, **Bogomils,** 109-73.

٣٩- **Raymond of Aguilers**, 235-38

وأنظر أيضًا الترجمة العربية :

ريموند اجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة الدكتور حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية (الأسكندرية ١٩٩٠م) ، ٥٩ - ٦٠ .

٤٠- **Odo of Deuil** , 30 , 32, 40.

٤١- **Expeditione Friderici**, 27-71

٤٢- **Cinnamus**, 93.

٤٣- **William of Tyre**, XX. 4, 946-47.

٤٤- **DAI, 1.29**, 123; Toynbee, **Constantine**, 269.

٤٥- للمزيد عن هذا الموضوع ، انظر :

DAI, 1.29, 127-29; Eickhoff, Seekrieg, 215-16.

٤٦- Ostrogorsky, **State**, 312; Obolensky, **Commonwealth**, 287.

٤٧- Obolensky, **Commonwealth**, 287.

٤٨- Sisic, **Kroaten**, 284-315; Obolensky, **Commonwealth**, 287; Ostrogrosky, **State**, 346.

٤٩- Sicic, **Kroaten**, 181-83; **DAI**, 11, 99.

٥٠- Jirecek, **Serben**, I, 199 - 240;

Ostrogorsky, **State**, 267, 325, 359;

Obolensky, **Commonwealth**, 155, 287-900

٥١- قامت المجر بضم كرواتيا سنة ١١٠٢م ، واستطاعت مد سيادتها على البوسنة فى القرن الثالث عشر الميلادى . فمنذ سنة ١٢٠٣م وضع ملك البونة بان كولين Ban Kulin دولته تحت حماية المجر ،انظر :

Ostrogorsky, **State**, 366, 410;

Obolensky, **Commonwealth**, 287.

٥٢- Corovic, **Hist. Bosne**, 276-98.

ويغطى هذا الكتاب تاريخ البوسنة فى العصور الوسطى حتى سنة ١٤٨٢م . وانظر ايضًا:

Ostrogorsky, **State**, 545, 46.

٥٣- Djurdjev, **Bosna**, Col. 1261.

٥٤- Jirecek, **Serben**, I, 215 - 38 ;

Obolensky, **Commonwealth**, 288-89;

Ostrogorsky, **state**, 364, 359.

٥٥ – Jirecek, **Serben,** 1,260 - 74;

Ostrogorsky, **State,** 388, 398 - 99, 407 - 8;

Obolensky, **Commonwealth,** 289 - 90.

٥٦ – Jirecek, **Serben,** 1, 296-300;

Ostrogorsky, State, 431; Obolensky, **Commonwealth,** 291, 312-15.

وانظر أيضاً :

Laurent, **La Serbie,** 109-30.

٥٧ – للمزيد عن دولة الصرب الكبرى فى عهد القيصر شتفان دوشان وعلاقتها بالدولة البيزنطية ، أنظر :

Obolensky, **Commonwealth,** 329-32; Ostrogorsky, **State,** 505-6,523-34; Ostrogorsky, **Relations,** 1-15.

٥٨ – وعن نمو النظام الإقطاعى فى دولة الصرب ، أنظر :

Ostrogorsky, **Féodalité,** 187-97;

Obolensky, **Commonwealth,** 328.

٥٩ – عن انتشار البوجوميلية فى البوسنة ، أنظر :

Angelow, **Bogomil Movement,** 41-42;

Runciman, **Medieval Manichee,** 101 - 102,115.

المصادر والمراجع والمختصرات

AASS	Scta Sanctorum, Antwerp 1643 ff.
Angelob, **Bogomil Movement**	D. Angelov, **The Bogomil Movement** (Sofia, 1978).
Angelov, Enstehung	D. Angelov, **Die Entstehung des Bulgarischen Volkes** (Berlin, 1980)
Angelov, **Formation**	D. Angelov, " formation and development of the bulgarian Nationality (Ninth to Twelfth Century), **BHR,** 1 (1973) 49-64.
B	Byzantion, Bruxelles (Paris),1924 ff.
Barisic Siége	f. Barisic, "Le siége de Constantinople par les Avares et les Slaves en 626", B, 24 (1954), 371-95

BHR	Bulgarian Historical Review
browning, **Byzantium** and Bulgaria	R. Browning, Byzantium and Bulgaria Acomparative Study Across the Early Medieval Frontier (London, 1975).
BS	Balkan
Bury, Roman Empire	J.B. Bury, History of the later Roman Empire from the Death of Theodosius l to the Death of Justinian (New York, 1958), 2 vols.
Charanis, **Demography**	P. Charanis, "Observations on the Demography of the Byzantine Empire" Proceedings of the XIII International Congress of Byzantine Studies (Oxford, 1966), 445-63.
Charanis, **Ethnic Changes**	P. Charanis " Ethnic Changes in the Byzantine Empire in the seventh Century", **DOP**, 13 (1959), 23-44.

Charanis, **Observations**	P. Charanis "Observations on the History of Greece During the Early Middle Ages". **Bs**, 11/1 (1970), 1-34
Cinnamus	Ioannes Cinnamus, **Epitome**, ed. A. Meineke (**CSHB**, Bonn 1836).
Corovic, **Hist. Bosne**	B. Corovic, Historija Bosne (Belgrade 1940)
CSHB	Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonn 1828-1897).
DAI	Constantine Porphyrogenitus **De Administrando Imperio**,Vol.**I**: **Greek Text**, ed. G. Moravcsik. Eng. trans by R. Jenkins (Budapest, 1949); Vol. II : Com mentary , ed. R. Jenkins and others (London, 1962).
Djkurdjev **Bosna**	B. Djurdjev, Art. "bosna (bosnia and Herzegovina) EI, Cols. 1261-75
DOP	Dumbarton Oaks Papers (Cambridge, Mass) Washington 1941 ff.

Dujcev **Serbes**	I. Dujcev, "Une ambassade byzantine auprés des serbes au IXe siécle ", ZRSAN, 7 (1961), 53 - 60.
Dvornik **Eastern Europe**	F. Dvornik **The Making of Central and Eastern Europe** (London, 1949) (Polish Research Centre)
EI	Encyclopaedia of Islam
Eickhoff, Seekrieg	E.Eickhoff, Seekrien und seepolitik Zwischen Islam and Adendland Das Mittelmeer unter byzantinischer and arabischer Hegmonie (650-1040) (Berlin 1966de Gruyter) .
Expeditione Friderici	Anoymous (Ansbert) **Historia de Expeditione Friderici Imperatoris;** MCH, SRG: NSV (Berlin, 1928), 1-115.
Georgiev, Balkam Peoples	v.Georgiev, The Genesis of the Balkan Peoples" SEER, 44(1965-66), 285-97.
	H,Grégoire, L'origine et le nom des

Origine	Croates et des serbes, B, 17 (1944-45), 88-118.
Halphen, **Charlemagne**	L. Halphen, **Charlemagne et** l'Empire Carolingien (Paris, 1949)
Hauptmann, **Rapports**	L. Hauptmann, Les Rapports des Byzantins avec les Slaves et les Avares Pendant la seconde moitié du VIe siéclé B, 4 (1929). 137-70 .
Howorth the **Avars**	H. Howorth, The Avars, JRAS, 21 (1889), 721-810.
Jirecek,b **Serben**	K. jirecek, **Ceschichte der serben** (Gotha, 1911, 1918), 2 vols
John of Ephesus	**The Third part of the Eeclesiastical History of John Bishop of Ephesus.** ed. and tr. R. Payne Smith (Oxford. 1960).
Jones, LRE	A.H.M Jones The later Roman Empire 284-602. A Social, Economic and Administrative survey (Oxford, 1973).2 vols.

JRAS	Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain London 1833 ff.
LAURENT, **La Serbie**	V. Laurent. "La Serbie entre Byzance et la Hongrie á la veille de la quatriéme Coisade', **RHSE,** 18 (1941), 109-30.
Lemerle, **Anciens Recueils**	P.Lemerle, **Les plus anciens recueils des miracles de saint Démétrius et la pénétration des Slaves dans Les Balkans** (Paris, 1979. 198) 2 vols.
Lemerle, **Invasions**	P. Lemerle, "Invasions et Migrations dans Les Balkans Depuis la fin de L'époque romaine Jusqu'au VIIIe siecle, RH 211 (1954), 265-308.
MGJ,SRG:NS	Monumenta Germaniae Historica, Seriptores Rerum Germanicarum : Nova series.
Milivoievic and Roglic, **yugoslavia**	M. Milivoievic and J.Roglic," Yugoslavia, in: **World Atlas,** vol. 1,512-27.
Miracula Sancti Dmetri, AASS	Miracula Sancti Demetri, in : AASS Oct. 8. Vol. IV, 104-197.

W

Nicephorus	Nicephori Archiepiscopi Constantinopolitani Opuscula Historica, ed C. De Boor (Leipzig, 1880).
Obolensky, **Bogomils**	D.Obolensky, **The bogomils, a study in Balkan Neo-Manichaeism** (Cambridge, 1948).
Obolensky, Commonwealth	D.Obolensky. **The Byzantine Commonwealth. Eastern Europe 500-1453 A.D.,** Cardinal ed. (London 1974).
Odo of Deuil	Odo of deuil, **De Profectione Ludovici VII in Orientem,** Ed v.G. Berry (New york, 1948) (Records of Civilization Sources and Studies).
Ostrogorsky **Féodalité**	G.Ostrogorsky. **Pour L'histoire de la féodalité byzantine** (Brussels, 1954).
Ostrogorsky **Relations**	Gostrogorsky, "Problémes des relations Byzantion- Serbes au Xive siécl **Proceedings of the XIII Inteerational Congress of byzantine Studies** (Oxford, 1966), -15.

Ostrogorsky **State**	G. Ostrogorsky, **History of the Byzantine State** Eng. trans. by j.M. Hussey (Oxford. 1988).
Péchoux and sivignon, Les **Balkans**	P.Y. Péchoux and sivignon, Les **Balkans** (Paris, 1971). (= Magellan : la Géographie et ses problémes XVI).
Raymond of Aguilers	Raymond of aguilers, **Historia francorum** qui Ceperunt Iherusalem; RHC, Occ. lll (Paris 1866), 231-309.
RH	Revue Historiaue, Paris, 1876 ff.
RHC, Occ.	**Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux** (Paris, 1944 95), 5 vols.
RHSE	Revue Historique du Sud-Est Européen, bucharest, 1924 ff.
Runciman, **Medieval** Manichee	S.Runciman the Medieval Manichee : A Study of the Christian Dualist Heresy (Cambridge, 1947).

SEER	Slavonic and East European Review London, 1922 ff.
Sisic, Kroaten	F. Sisic, Geschichte der Kroaten I (Zagred, 1917).
Theophanes	Theophanis Chronographia. ed. C. De Boor (Leipzig, 1883-85),2vols.
Theoph. Cont.	Theophanes Continuatus, Ioannes Cameniata, Symeon Magister, Georgius Monachus Continuatus, ed. I.Bekker (CSHB. Bonn 1838), 1-481.
Toynbee, Constantine	A. Toynbee, Constantine Porphyrogenitus and his World (London, 1973).
Vasmer, Die Slaven	M. vasmer, Die Slaven in Griechenland (Berlin 1941. de Gruyter)
Vlasto, Christendom	A. vlasto, The Entry of the Slavs into Christendom. An Introduction to the Medieval History of the Slavs (Cambridge, 1970).

William of Tyre	William of Tyre, Historia Terum in Partibus Transmarinis Gestarum a tempore Successorum Mahumeth Usque ad Annum Domini MCL XXXIV, RHC OCC.1 1,2 (Paris, 1844).
World Atlas	Committee for the World Atlas of Agriculture (ed), The World Atlas of Agriculture (Novora, 1989-76), 5 vols.
ZRSAN	Zbornik Radova srpske Akademie Nauka. vizantoloski Institut. belgrade 1952 ff.

فهرس الكتاب

رقم الإيداع ٩٤/٤٣٣٥

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 5487 - 11 - 0

طبع بمطابع دار روتابرينت


Ein
للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES